فن الرباعية الشعري
(الخصائص الفنية والسمات الفكرية)
رؤية معاصرة

د. باقر جواد محمد / وزارة التربية

مقدمة :

الحمد لله، وبه نستعين، وبعد...

فان من الفنون الشعرية العربية الجذابة، التي تتميز من غيرها من فنون الشعر المستحدثة((كالمواليا والزجل والكان وكان والقوما))، ما اصطلح على تسميته بـ (الرباعيات) أو (الدوبيت). فقد امتازت هذه بكونها محلاة بقواعد الأعراب وموازين الصرف، وحلاوة الإيقاع، بجانب ارتباطها بمعاني الحب الوجداني المفعم بالعواطف الصادقة ونوازع الزهد والتصوف والتأمل الفلسفي.

وفي دراستي الموجزة هذه حاولت التعرف على هذا اللون الجديد، المميز عما آلفه شعرنا العربي من قوالب ثابتة، مثلتها بحوره الستة عشر. على الرغم من ان طبيعة شعرنا العربي المرنة- وزنا وإيقاعا وأساليب ومدلولات- جديرة بان تدفع بأربابه الى التحليق في رحابه الفسيحة، مستكشفين من معينه الثرْ كل جديد مستطاب أو طريف مستملح- بنية ودلالة.

ولعل ما وسم شخصية العربي من خصائص النمو العقلي والتطور المعرفي الأصيل، جعلته يحرص بشغف على أرتشاف كل جديد، واعمال العقل لمحاولة اكتشاف الطريف والمبتكر، وكان الشعر من بين ما شملته تلك المحاولات الجادة، لا سيما بعد جنيه ثمار التطور الحضاري الباهر حتى نهاية العصر العباسي، فإذا بنا نستقبل مع بواكير القرن الرابع الهجري وما تلاه أشكالاً فنية مبتكرة من الشعر العربي، تمثلت بتنوعات إيقاعية مغايرة- بناء وترتيباً- للمعهود من النظام العددي لتفعيلة الأوزان

المعروفة، ذهب بعضهم الى اعتبارها أوزاناً جديدة تضاف الى سابقاتها، على الرغم من أنها لم تخرج عن الوحدات الصوتية والإيقاعية لبنية التفعيلة وجرسها، كما درج على نطقه العرب وساغ أسماعهم منها، فقد كانت الرباعية من بين هذه الأشكال الفنية الناضجة. لقد كان إقدامنا على دراسة هذا النوع أمر طبيعي، خصوصاً ان مثل هذه الظاهرة البارزة في تاريخ تطور الشعر، والتي دامت قرون طويلة وغطت خلالها مساحات واسعة من الأقاليم واستغرقت أمتع أغراض الشعر و أقربها الى النفس كالغزل والزهد والتصوف، وأثرت بجمالية مظهرها الشعري (زمنا ونظاماً) في الكثير من نماذج الشعر التقليدي ذي العروض الصريح، فظهر فيها الترصيع والتجنيس المقتبس من نظام الرباعية المبتكر هذا في العديد من النماذج الشعرية.

وقد بدا لي – بعد وقوفي على حيز لا بأس به من أبعاد الموضوع التاريخية والفنية– ان أصوغ خطتي الدراسية عبر ثلاثة مباحث: يسبقها تمهيد وحيز يتناول شيئاً عن مفهوم الرباعية وملامح نشأتها.

يتناول الأول منها(الجذور الفنية للرباعيات)، فيما يتناول الثاني وخصائصها الفنية، ثم اختمها بالمبحث الثالث الذي يعرض ملخصاً لسماتها الفكرية، مشفوعة بنماذج منتقاة تعبر عن أغراضها عبر القرون العشرة.

ولي بعد ذلك– ان التمس العذر عما قد يرافق دراستي هذه من قصور غير متعهد باذن الله، ومن الله السداد.

توطئة:

تشكل الرباعيات نمطاً شعرياً مستحدثاً، نظم على شاكلته العديد من الشعراء. وقد عدّه معظم الدارسين وزناً خاصاً خارجاً عن بحور الخليل الستة عشر[1]ويعرف (عند

(١) انظر: ديوان الدوبيت في الشعر العربي (في عشرة قرون): د. كامل مصطفى الشيبي: دار الثقافة: بيروت: ١٩٧٢/٥٨-٦٨.

أنظر: العروض الواضح: د.ممدوح حقي: ط١٤: دار مكتبة لحياة: بيروت: ١٩٧٠/١٦٤.

أنظر: الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه: معروف الرصافي: مطبعة المعارف: بغداد: ١٩٦٩/١١٤.

أنظر: فن التقطيع الشعري والقافية: د. صفاء خلوصي: ط ٣، بيروت: ١٩٦٦/٢٩١.

أنظر: أهدى سبيل الى علمي الخليل: محمود مصطفى: ط٧: القاهرة: ١٩٦٧/١٤٦.

المحدثين) ببحر السلسلة أو الرباعي، ويأتي في العربية على وزن(فعلن متفاعلين فعولن فعلن) بتكراره أربع مرات، مصحوبة بوحدة القافية ومن أهم ما يدفع الشعراء الى النظم به- كما يرى الدكتور كامل الشبيبي- يعود الى حاجة الشعراء الى الأعراب عن أحاسيسهم، وبخاصة شؤون حياتهم اليومية ومشاعرهم الشخصية الخاصة، بقطع من الشعر فيها شكل القصيدة العام دون التطويل المتبع. إذ جرت الأمور على مقتضى الطباع المتغيرة [١]، ولعل ظهور نوع من الرباعيات في القرن الثاني الهجري، مقولا على السنة الشعراء من أمثال حماد عجرد ٢٦١هـ وبشار بن برد ١٦٥هـ يعد دليلاً على الرغبة في التغيير تدخل ضمن هذا الإطار الفني منظومة أبن دريد المتوفي ٣٢٤ هـ التي سماها (المربعة) وهي قصيدة طويلة وحدتها أربعة أبيات تبدأ كلها بحرف وتنتهي به باعتبار قافيتها، ثم ترد أربع أخرى تبدأ بالحرف التالي وتنتهي به حتى تستوفي حروف المعجم لتكون ١١٦ بيتاً [٢].

أن هذا النمط الشعري الذي عرف عند العرب بكونه وحدة شعرية ذات مصاريح أربعة تتحد فيها القافية، أو قد تختفي فيها القافية الثالث[٣]، وقد وجد (ما يشاكله) في الآداب الأخرى، أذ ظهر فيما بعد في الشعر الفارسي على لسان (الرودكي) المتوفي سنة ٣٢٩هـ وغيره، وظهر كذلك في القوالب التركية والتاجيكية [٤]بينما تعني الرباعية في الشعر الإنكليزي المقطع الشعري المكون من أربعة ابيات تتفق في قافية واحدة أو اثنين، كما تتحد في وزن واحد أو اثنين [٥] وعلى الرغم مما يحظى به هذا الفن من شهرة واسعة ورواج كبير بين الشعراء والمتذوقين طيلة القرون العشرة الماضية، بدا نوره يخبو شيئاً فشياً، ويتجه نحو الانحسار فاتحاً المدار الأدبي لشيوع أنماط أخرى جديدة، يأتي في طليعتها ما أصطلح على تسميته بالشعر الحر، تساوقاً مع سنة التطور التلقائي في

أنظر: من أدب العصور المتأخرة: د. ناظم رشيد: مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٥/٤٦.

(١) أنظر: ديوان الدوبيت./ ص٣٤-٣٥.

(٢) أنظر: نفسه/٣٨.

(٣) أنظر: أهدى سبيل/ ١٤٦.

(٤) أنظر: ديوان الدوبيت/٩٦.

(٥) أنظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب: مجدي وهبة وكامل المهندس: لبنان: ١٩٨٤.

الأدب. إذ انه قد صار كما يقول الشيبي– من تراثنا الموسيقي الكلاسيكي، بأعتباره من الموشحات !، فكثيراً ما تغني فرق الإنشاد رباعيات الدوبيت على إنها موشحات ![1]. وهذا يعني ((ان دور الدوبيت لم ينتهي بعد، وأن فيه من الحيوية والقوة ما يمكنه من أن يستمر في الفصحى والعامية سنين طويلة آتية، وخصوصاً في مجال الأوبريت الغنائي، (فكل ما يحتاج اليه شيء من الإلحاح في لفت النظر إليه)، ذلك انه غناء وإيقاع من ناحية وفلسفة وتأمل من ناحية أخرى، ومناجاة وحب من ناحية ثالثة، وهي عناصر تجذب اليها الناس بشتى أجناسها وميولها وأهدافها))[2]. ولا شك في انها معطيات وسم بها (العصر الحديث)، وربما وجدت لها إمدادات فنية في أجناس أدبية أخرى، أو قوالب فنية مستحدثة.

المبحث الأول : جذور الرباعيات ، نشأتها وتطورها

التسمية والنشأة:

أقترنت لفظة(الرباعيات) بشعرنا العربي المعاصر، بمصطلح(الدوبيت)، وقد ذهب بعض الدارسين والمؤرخين الى انه مأخوذ في الأصل عن الفرس[3]، ومعناه البيتان، بوصفه قالباً شعرياً مكوناً من بيتين بأربعة مصاريع، ظهر في الشرق مثل ظهور الموشح في الأندلس والمغرب، والاسم المذكور(الدوبيت)، مركب عندهم من لفظتين (دو) الفارسية ومعناها الاثنان،و(بيت) العربية، ذلك ان الفرس لم يكونوا لينظموا اكثر من بيتين[4]، وسمي بالرباعية– عندهم– على الرغم من كونه بيتين، بغية تميزه من (المثنوي) الفارسي، الذي يتكون بيته من شطرين في بيت مصرع، فدخل في مجال المزودج العربي بأعتبار وحدته بيتاً مصرعاً لا صلة له بما قبله ولا بما بعده في القافية، وعند ظهور الدوبيت وأشتهاره كالمثنوي ويزيد، والذي هو بيت واحد، عن الدوبيت الذي تتكون وحدته من بيتين، كان منطقياً وقياسياً في زعمهم ان يطبق على الدوبيت(الرباعي) بضرب

(١) ينظر: ديوان الدوبيت/٩٥.

(٢) نفسه/١٣١.

(٣) أنظر: ديوان الدوبيت /(١٧–١٨)، الادب الرفيع/١١٤، أهدى سبيل/١٤٦، العروض الواضح/١٦٤، فن التقطيع الشعري/٢٩١، في ادب العصور المتأخرة: د. ناظم رشيد: الموصل١٩٨٥/٤٦.

(٤) أنظر: فن التقطيع الشعري/٢٩١.

المثنوي X ٢ [١]، ولعل تسمية الفرس له بـ (الرباعي) بسبب اشتماله على أربعة أشطر موحدة القافية في الغالب [٢].

وقد ذهب بعض الدارسين الى ان اصل اللفظة (الدوبيت) بأعجام الذال لا إهمالها وهي عربية الأصل وتعني صاحب البيت، أفسدتها العامة الى (دو بيت)[٣]، غير ان الرصافي يرجح إهمالها ويشاطره في ذلك د. مصطفى جواد، الذي يرى ان التحريف جرى على الأصل، وهو (الدوبيت) الى (ذو بيت) ثم الى (البوذيت) ثم الى (بوذيّه) ثم قالوا: (أبوذيّه)[٤]، ولعل من الطريف في تحديد نسبة التسمية وأصلها ما ذكره (رامز حيدر) من أن الفرنج أطلقوا قديما على وحدة الرباعية في الشعر العربي(الدوبيت) و معناها بحر البيتين، وهي مركبة – كما يرى– من (دو) بالفرنجي أي الاثنين، وبيت بالعربي، وكل بيت منها يقسم شطرين، وهي على ذلك (عربية الأصل)، وهذا ما دعا عمر الخيام– كما يعتقد– الى تجنب نظم رباعيته بالعربية – وهي لغة عامه وادبه– تحرزا من افتضاح مصدرها العربي الذي تأثر به، بل و انتحل بعضه لنفسه، ومنه ماسمع عن ابي محجن الثقفي وبشارو ابي نؤاس وابي العتاهية والمعري وحتى ابي العباس الباخرزي، فها هو مثلا ينسخ (فكرة وبناء) ما سبق لعدي بن زيد قوله(وهو شاعر جاهلي):

أيها الركب المخبّون　　على الأرض المجدّون
فكما أنتمُ كنا　　وكما نحن تكونون

فقال الخيام:

أرى أناساً على الغبراء قد هجدوا　　ومعشراً تحت اطباق الثرى رقدوا

(١) أنظر: ديوان الدوبيت/٥٥.
(٢) أنظر: أهدى سبيل/١٤٦.
(٣) أنظر: ديوان الدوبيت/١٢١(أستناداً الى رأي (المحبي) في خلاصة الاثر/١٠٨، والمزدي في سلك الدر/٣/٣٥٠، والابياري في سعود المطالع ١/٣٨١.. في انه اعجم تصحيحاً وتحريفاً، وليس أصلاً).
(٤) أنظر: في التراث العربي /ج٢٣٢.

و أن نظرت لصحراء الفناء أرى قوماً تولوا وقوماً بعد لم يردوا[١]

ومهما يكن من أمر فان ما ذكره(رامز حيدر)،ربما لا يعطي دليلا عليما كافيا- كما نعتقد-على تحديد بدء استعمال وزن الرباعية(لقالب العروض الذي سبقت الإشارة اليه)،غير انه يشكل- في تقديرنا – الجذر الأساس الذي تطورت منه لتصل الى ما هي عليه، تساوقاً مع ناموس الحياة في التطور، وبخاصة ما يتصل بالفكر والأدب، ولعل ما يؤيد ذلك أحاطة الشعراء الذين سبقت الإشارة الى محاولاتهم لأنماط قريبة من السمات الفنية الخاصة بالرباعية أو الذوبيت، فضلاً عن ان (نوعاً من الرباعيات العربية كان معروفاً في القرن الثاني الهجري ومقولا على السنة بعض الشعراء) مثل حماد عجرد وبشار بن برد، كما بدا عليه بيتا بشار المشهوران في جارية تبيع الطيور، مازحاً:

لها ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت

((حيث اتحدت قافية مصاريع هذه الرباعية عدا المصراع الثالث))[٢]

وأذا كانت مزاعم شمس الدين الرازي المتوفي بعد سنة ٦٢٨هـ من ان مكتشف الرباعية هو (الرودكي) عبد الله بن جعفر السمرقندي المتوفي سنة ٣٢٩هـ، معتمداً قصة سماعه صبيا يردد متوازية في أثناء لعبه، وجد فيها وزناً مقبولاً ونظماً مطبوعاً يرتبط باحد فروع الهزج فنظم على نسقه (بعد إصلاحه) اشعاراً، اقتصر من كل قطعة منها على بيتين، احدهما مصرع والآخر مقفى[٣].

فان رأي (السلمي) المتوفي سنة ٤١٢هـ من ان ورود مصطلح الرباعيات على لسان الجنيد البغدادي المتوفي سنة(٢٩٨هـ) أي قبل الرودكي، بأعتباره الراعية ضرباً من

(١) أنظر: رباعيات أبي نؤاس: رامز حيدر:ط١: بيروت: سنة ١٩٦٥/٣-٧.
(٢) أنظر: ديوان الدوبيت../٣٨،٣٦.
(٣) أنظر: ديوان الدوبيت ../١٨-١٩ (نقلا عن معجم البلدان لياقوت الحموي).

الشعر يختلف عن القصائد، مما يعين الدارسين على القول بتحديد تاريخ مبكر لظهور فن (الرباعية) في الشعر العربي[١] قبل تعرف غير العرب عليه.

التطور:

واذا كانت بواكير ظهور الرباعيات في القرن الثاني الهجري- وكما عرفها كذلك بعض المتصوفة والزهاد، فان وتائر تطورها ونضجها وانتشارها بدأت بشكل ملموس عبر القرنين الخامس والسادس، وان كانت ملامح استوائها بدأت منذ القرن الرابع الهجري، فقد ذكر د. كامل الشيبي[٢] مستنداً الى رواية (الحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ) الى ان اول وانضج رباعية نظمت مدونة في العربية كانت لأبي العباس (الباخرزي) وهو من شيوخ الحاكم النيسابوري، المتوفي سنة ٤٠٥هـ، أذ من رباعيات الباخرزي المشهورة مثلاً قوله:

قد صيرني الهوى اسير الذلة واستنكني وما بجسمي عِلّة
واستاصل هجره بصبري كله لا حول ولا قوة الا بالله

وهذا ما يعضد الرأي القائل بأسبقية البراعية العربية على سواها من اللغات الاخرى، وفي ذلك نفي لرأي الرافعي أيضاً من ان الذوبيت لم يكن في العربية قبل القرن السابع الهجري[٣] لاسيما وقد ظهر لعديد من ناظمي الرباعية العربية من أمثال أبي سعيد أبن أبي الخير (٣٥٧-٤٤٠ هـ) وغيره.

وما ان هل القرن السادس الهجري حتى بلغ الشغف بالرباعيات أرض العراق، فكان الناظمون للرباعية في هذه الفترة من رجال الدولة والقضاء، والوزير الحسن بن علي بن صدقة (ت ٥٢٢هـ) وسديد الدولة الانباري ٤٦٨-٥٥٨ هـ، وغيرهم كثير، وبرز منهم: (أبن القطّان ت ٥٥٨) في العراق و(ابن قسيم الحموي ت ٥٤١هـ) المتوفي في الشام، ومن الأسرة الأيوبية (ناصر الدين كامل ت ٥٨١هـ) ثم انتقل الى مصر في القرن السابع الهجري على يد (أبن مماتي ت ٦١١هـ) و (ابن الفارض ٥٧٦-٦٣٢هـ) الذي نقله ابوه

(١) أنظر: نفسه ٤٣-٤٥.
(٢) أنظر: نفسه/ ٥٠-٥٣، ١٣٧.
(٣) أنظر: تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي : ج٣: مصر/١٧٢.

من الشام الى مصر حيث كانتا موحدتين ابان حكم الأيوبيين، وبرز من المصريين (البهاء زهير ٥٨١-٦٥٦ هـ). ويبدو ان القرن السابع الهجري كان عصر الذوبيت الذهبي، أذ يذكر د. كامل الشيبي أنه وقف على دوبية تسعة وأربعين شاعراً ممن مارسوا نظمه، وكان بينهم الصوفية والملوك والفقهاء والفلاسفة والأطباء، ومن بينهم نصير الدين الطوسي وجلال الدين الرومي الذي كان له الفضل في إيصالها الى بلاد الروم، حيث وجد له تسعة عشر رباعية وكذلك سعد الدين بن عمر عربي ٦١٨-٦٨٦ هـ له ستين رباعية، ومن الشخصيات المهمة نظام الدين الاصفهاني ت ٦٨٠هـ الذي نظم ديواناً برأسه، ضمن ألف بيت منها على القوافي من الألف الياء، فضلاً عن ترجمته للكثير من الرباعيات الفارسية، فكان اول من ترجم لعمر الخيام.

وفي القرن الثامن الهجري برز العديد من شعراء الرباعيات المعروفين في مصر والشام والعراق مثل (كمال الدين لشوصي الشافعي ٦٣١-٧٠١) في مصر، و (صفي الدين الحلي ٦٧٧-٧٥٠) في العراق، الذي تفنن في شكل الراعية، كما فعل في هذه الرباعية من فنون التجنيس التام:

العيداتى ومن تعشقت يعيد ما اصنع بعد! منية القلب بعيد
ما العيش كذا لكن من عاش رغيد من غازل غزلانا أو عاشر غيدا

وعبر مسارها الطويل، مضت الرباعيات الى مكة حيث نظمها أبو بكر المكي، وما ان طل القرن التاسع الهجري، حتى بدت المراجع تشح، فلم يظهر منها سوى القليل مثل: السعيد الخوارزمي المكي ت ٨١٣هـ، وابن حجة الحموي ٧٧٦-٨٣٧ هـ وصاحب خزانة الادب، وهذا ما وسم رباعيات القرن العاشر ايضاً، أذ كان من اشهر شعرائها (فضولي البغدادي ٩١٠-٩٧٠هـ) وبرز في القرن الحادي عشر يجيدون لغتين او ثلاث (كالبوريني ٩٦٣-١٠٢٤هـ) صاحب تراجم الاعيان الذي تعلم الفارسية والتركية واتقنهما، ومن اشهر شعراء العصر: (بهاء الدين العاملي ٩٥٣-١٥٣١ هـ) الفقيه العالم الفيلسيوف الموسوعي، وقد شهد هذا العصر ظهور شاعر عراقي هو (ابو بحر الخطي ت

١٠٢٨هـ) .. وفي القرن الثاني عشر الهجري ظهرت نماذج كثيرة من الذوبيت على صورة رباعيات وموشحات لشعراء ينتمون الى المشرق كان منهم نصر الله الحائري ت ١١٧٥هـ) وهو من فقهاء كربلاء و (صالح بن المعمار ت ١٨٦٦) من الموصل، ومنهم (شهاب الموسوي ت ١١٨٧هـ) من قبيلة كعب العربية في ايران، و (أزاد البلكرامي ١١٦/١٢٠٠ هـ) من الهند الذي له ديوان بالعربية.. ودخل القرن الثالث عشر فإذا الانحسار الكبير للذوبيت بسبب من تربص الاستعمار الغربي للدولة العثمانية والانصراف التام عن الثقافة، فلم يظهر من الشعراء الا ثلاثة منهم: (الشريف الخشاب ت ١٢٣٠ هـ) و (عثمان الموصلي ١١٨٨-١٢٤٦ هـ). وما ان دخل القرن الرابع عشر الهجري حتى شهدنا انحسار فن الرباعيات من دواوين شعراء ما يسمى بعصر النهضة، أمثال محمود سامي البارودي وشوقي وحافظ والكاظمي والشبيبي والرصافي، الا ما ندر[١]

(١) أنظر: ديوان الدوبيت/٧٢-٨٧.

المبحث الثاني : خصائص الرباعيات الفنية ، بنيتها وإيقاعاتها...

أ. بنيتها العروضية:

الرباعية او الدوبيت قالب شعري مميز، مؤلف من أربعة مصاريع، سمى لعرب الواحد منها رباعية، يراعى في المصراع الأول والثاني والرابع منه في الأقل– قافية واحدة، والا فقوافيها موحدة، ووزنه لدى العروضيين والمصنفين العرب المتأخرين هو: (فَعْلُنْ مُتفاعِلُنْ فَعْولُنْ فَعِلُنْ) بتكراره اربع مرات [1]
كقول شرف الدين بن الفارض/٦٣٢هـ:

لك زائراً وفي الهجر فِدا — يا مؤنس وحدتي اذا الليل هَدا
ان كان فراقنا مع الصبح بَدا — لا اسفرَ بعد ذاكَ صبحٌ ابدا

وهو – كما واضح– متحد القوافي في جميع مصاريعه، فان اختلفت الثالثة منها، سمي (اعرجا)، مثل قول ابن الفارض نفسه:

أهوى رشألي الأسى قد بعثا — مذ عاينه تبصري ما لبثا
ناديت وقد فكرت في خلقته — سبحانك ما خلقت هذا عبثا[2]

وقد تطرأ على قالبه زحافات عديدة، مما دعا البعض الى إلحاقه بأوزان تقليدية معروفة كالرجز والهزج والوافر. فالفرس أفرغوه في قالب عروضي يناسب أجزاء (بحر الهزج) الذي وزنه (مفاعلين ٦ مرات)، ولكن بالإيقاع نفسه آل إليه تعديل (الرودكي) في قصة اكتشافه المزعومة، فاضحى الوزن عندهم:

---

(١) ينظر: ديوان الدوبيت/٥٨، نقلا عن: ((حاشية الدمنهوري ص٣٨، وميزان الذهب للهاشمي ص ١٣٣)) وقد جاء مصراعه الاول في (أهدى سبيل: ((روحي لك يا مواصل الليل فدا)) ص ١٤٦.

(٢) أهدى سبيل/ ١٤٧.

(مَفْعولُ مَفاعِيلُ مَفاعِيْلُنْ فاع) أربع مرات

واعتبروه من ملحقات بحر الهزج: الذي وزنه (مفاعلين ٦ مرات)، ولكنه لا يستعمل الا مجزوءاً فيصير (مفاعيلن) ٤ مرات:

(مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن)

ويذهب (ممدوح حقي)[١] الى ان أحد أنموذجي (بحر السلسلة) الملحق بالذوبيت، الذي يتألف وزنه من (تن مستفعلن مستفعلن مستفعلن) هو بالأساس جزء من (بحر الرجز) الذي وزنه (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) مكرر، لذا فهو يلحقه به، لان حذف السبب (تن) الاول، يعيده الى وزن الرجز ويمثل بقوله:

(قد) اقسم من احبه بالباري (ان) يبعث طيفه مع الأسحار

فحذف السبب الخفيف(قد) من المصراع، وكذلك السبب الخفيف (ان) من المصراع الثاني، يعيد البيت الى الهزج، وقد يستعمل الذوبيت مجزوءاً، فيكون وزنه:

(فعلن متفاعلن فعولن) مرتين، كقوله الباء زهير:

يا من لعبت به شمول ما الطف هذه الشمائل

وقد عده بعضهم منتسبا الى (بحر الوافر) في الأصل، الذي وزنه (مفاعلتن) ٦ مرات، غير ان بحر الوافر لا يرد- عادة- صحيحاً، بل لابد من قطف عروضته فيصير:

(مفاعلتن مفاعل) وتحول الى (فعولن). كما يظهر ذلك في رباعية البهاء زهير المذكورة آنفاً، فيكون وزنها:

(فعلن متفاعلن فعولن) بحذف (فَعِلُنْ) من مصراعيه.

ب- تفعيلها وايقاعاتها:

(١) العروض الواضح/١٦٧.

يقطع وزن الرباعية التام– كما ثبته د. صفاء خاوصي، مستندا– في ذلك– الى ما ذكره ياقوت الحمي في ترجمته ابي يعلى بن علي بن العين زربي(ج٤ص١٥٢) من ان للذوبيت وزنا خاصا هو:

(فعلن– متفاعلن– فعولن– فعلن) لكل مصراع، مثل:

نَفْسِيْ لَكَ زائِرا وَ فِي الهَجرِ فِدا — يا مُؤْنس وحْدتي اذا اللّيلُ هَدَاْ

-- ب ب -ب- ب-- ن ن - — -- ب ب -ب- ب-- ب-- ب ب -

فعلن متفاعلن فعولن فعلن — فعلن متفاعلن فعولن فعلن

ويكرر هذا التقطيع الإيقاعي على الجزء الثاني من الرباعية بمصراعيه وهو:

((إنْ كان فراقنا مع الصبح بدا — لا اسفر بعد ذاك صبح ابدا[١]

وقد يستعمل الدوبيت مجزوءاً هكذا:

(فعلن متفاعلن فعولن) مرتين، كقول البهاء زهير:

يا من لعبت به شمول — ما الطف هذه الشمائل

فيقطع: / يا من لعبت بهي شمولن — ما الطف هاذهشـ شمائل

فعلن متفاعلن فعولن — فعلن متفاعلن فعولن

-- ب ب -ب - ب -- — -- ب ب -ب - ب --

ويكرر هذا التقطيع الايقاعي على الجزء الثاني من الرباعية بمصراعيه، وهو:

نشوا نُ يهزُه دلالٌ — كَالغصْنِ معَ النسيم مائل[٢]

(١) أنظر: التقطيع الشعري والقافية /٢٩١–٢٩٣.

(٢) أنظر: الادب الرفيع ../ ١١٥.

المبحث الثالث
أهم السمات الفكرية ، نماذج مختارة بحسب العصور

من الطبيعي ان يكون للفسحة الزمنية الطويلة التي استغرقها نظم الرباعيات، والرقعة المكانية المترامية التي انتشر فيها، اثر واضح في إثراء التراث العربي بنماذج رائعة طرزت نسيجه بإيقاعاته الجذابة وجرسه الشجي، فكان وعاءً شهياً لعدد من الأغراض والمعاني القريبة الى النفس، فتغنى به أصناف المحبين، وحلقت بأخيلة عروضته الممتعة تأملات الصوفية والمتفلسفين ممن جنحوا الى التعبير عن أعماق نفوسهم بأحاسيس صادقة، وان كان نصيب الأغراض الأخرى ضئيلاً.. ذاك أنهم تناولوا بعض أغراض أهل المشرق بمفهوم الخاص، ولا سيما الغزل، الذي توسعوا في أنواعه وتفننوا بألوانه، وبرعوا في وصف الطبيعة، معبرين من خلالها عن طبيعة بلادهم الساحرة وأنماط حياتهم الرخية الناعمة، وقد استحدثوا اغراضاً جديدة من الشعر، كشعر الاستلطاف والاستعطاف والمناجاة، فضلاً عن تولعهم بالشعر التعليمي كألفية مالك وسواها، مما يَسّر لهم حفظ التراث العربي الإسلامي، ولعل ما افاضت به همت الدكتور كامل الشيبي للبحث عن النصوص، أغنى الباحثين مضنة التنقيب والبحث، إذ جمع المئات من قصائد الذوبيت لعشرات الشعراء على مدى القرون العشرة التي شملها ديوانه (الدويتي) الأثير، آثرنا أن ننتقي منها ما يعبر عن تنوع الأغراض وتعدد الأسماء وتسلسل القرون، بما يحترم المقام.

١- قال أبو العباس الباخرزي، من القرن الرابع الهجري، مجسداً تواجده في (الحب حد التسليم..)

قد صيَّرتني الهوى أسيرَ الذلّة — واستنهكَني وما بجسمي عِلّة
واستأصلَ هجرهُ بصبري كلّه — لا حَولَ ولا قوةَ الا بالله

٢- وقال أبو سعيد بن أبي الخير، ٣٥٧-٤٤٠ هـ في (المناجاة):

حمداً لكَ، ربَّ، نجّني، منكَ فَلاح شكراً لكَ في كلّ مساءٍ وصباحْ
من عندك فتح كلِّ باب، ربّي افتح ليَ ابوابَ فتوحٍ وفتاحْ

٣- وقال سديد الدولة الانباري ٤٦٨-٥٥٨ في (الحب ومناجاة النفس):

يا قلب الام لا يفيد النصْحُ دَعْ مزحك كم هوىً جناهُ المزْحُ
ما جارحةٌ منكَ خَلاها جرحُ ما تشعر بالخُمّار حتى تَصحوا

٤- وقال السهروردي، أبو الفتوح: قتل سنة ٥٨٦هـ في (الجفاء)، مستخدماً التجنيس التام:

قومٌ رقدوا فهم نيام، يا قلبْ دعهم – بالله- فذا ظلامٌ، يا قلبْ
ما ينفعُ بالنصح كلامٌ، يا قلبْ فاصفحْ عنهمُ وقلْ، سلامٌ يا قلبْ

٥- وقال عماد الدين الاصفهاني، توفي سنة هـ في (الجهاد):

اقسمت سوى الجهاد مالي يا ربُ والراحة في سواه عندي تعبُ
الاّ بالجــد لا يُنالُ الطلبُ والعيشُ بلا جد جهادٌ لعبُ

٦- وقال أبو الفرج، (ابن الجوزي) توفي ٥٩٧هـ في (شكوى الزمان):

واها لزماننا الذي كان صفا أبكى مرضي وليس لي منه شفا
ذابت روحي وما أرى منه جنا هذا رمقــي، تسلموه بوفا

- وفي (عشق الذات الالهية)، قال:

يا ملك مهجتي ووالي ديني كم ينشرني الهوى ولم يطيويني
هجرانك، مع محبتي، يضنيني هل تدركني بنظرة تحييني؟!

٧- وقال فتيان الشاغوري (جمال الدين ابو محمد) توفي سنة ٦١٥هـ في (الغزل العذري الجامح)/ تجنيس:

الورد بوجنتيك زاهٍ زاهرْ والسحرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ
والعاشق في هواك ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف، فهو شاكٍ شاكرْ

٧- وقال الملك الامجد، المقتول سنة ٦٢٨ هـ في (فلسفة الحياة):

كم يذهب هذا العمر في الخسران ما اغفلني فيه وما انساني
ضيعت زماني كلــه في تعب يا عمر، فهل بعدك عمر ثان؟!

٩- وقال (ابن الفارض) شرف الدين ابو حمْص عمر، توفي سنة ٦٣٢هـ(في حب الذات الالهية):

لم أخشىَ – وانتَ ساكنٌ أحشائي – إن اصبحَ عني كل خلٍ ناَءِ
فالناسُ اثنانِ : واحدٌ اعشقهُ والآخرُ لم أحسبْه في الاحياءِ

١٠- وقال جلال الدين الرومي، توفي سنة ٦٧٢هـ في (فلسفة الوجود):

ما اطيبَ ! ما ألذ! ما أتحلانا! كنا مهجا ولم نكن ابدانا
ان شاء بنا كرامة مولانا يعفو ويعيدنا كما ابلانا

١١- وقال سعد الدين بن عربي (محمد بن محمد بن علي الطائي الحاتمي) توفي ٦٨٦ هـ:

يا ليلُ، الا طلتا بالله عليك قد زارني الحبيب والأمر اليك
ناداني: " لا تخش طلوع الفجر! ما يطلعه وشمه بين يديك" !

١٢- وقال (صفي الدين الحلي) توفي ٧٥٠ أو ٧٥٢ هـ في (الغزل):

يا مَنْ لجمال يوسف قد ورثا العاذل قد رق لحالي ورثا
والناس تقول- أ ترى حسنك ذا " سبحانك ما خلقت هذا عبثاً"

١٣- وقال (فضولي البغدادي) محمد بن الحسين، توفي في ٩٣٢ هـ (في مناجاة المتصوفة والزهاد):

الحمدُ لمن انار قلبي وهدى والشكر لما فيه من الشوقِ بَدا
ما أمدحُ واهبا سواهُ ابدا لا اشركُ في ثناءِ ربّي احدا

١٤- وقال (عثمان الموصلي) ابو يوسف بن عز الدين القادري، توفي سنة ١١٤٦هـ: (من مناجاة الصوفية والزهاد)

يا من عذلوا اخا الهوى في الحب ما العيد سوى رؤية وجه الحِبِّ
ماذا نفعتْ زينة ثوبي: يبلى! ماذا صنعت مشية اهل العُجْبِ

- وقال أيضا في (مناجاة الخالق المتجلي بلطفه عباده):

من مال الى غيرك فهو الجاهلْ والغَيرُ تخيُّل ووهمٌ باطِلْ
يا من هو للجمال فردٌ كامل باللطفِ عُبيدك المعنى عاملْ

١٥- وقال (احمد الصافي النجفي) توفي سنة ١٩٨٥م في ترجمته رباعيات الخيام:

البلبلُ قد شدا على الاغصانِ فاشرب صهباءَها مَع الندمانِ
والوردُ زَها، فقم وبادِر عَجِلا يومين من الهناء في البُستانِ

الخاتمة :

في المتقدم من الصفحات،طفنا في رحاب لون مستحدث من ألوان شعرنا العربي، أمتعنا بأنغام عروضه المبتكر، ومعاني التأمل و الوجدان، فأغرانا الى التعرف على جانب من قدرات شعرائنا المبدعين، و حيوية لغتنا النامية، ونعني بذلك فن الرباعيات الشعري.

أن ما وقفنا عليه من محاولات التجديد الأولى المتمثلة باعتماد نظام البيتين ذوي المصاريع الأربعة المتحدة في القافية أو باختلاف الثالث منها،في شعر القرن الثاني الهجري، مرورا بنماذج شعر الصوفية المختلف عن نظام القصائد السائدة،كل ذلك كان له أثره الواضح في ظهور (فن الرباعية و استوائه بقالبه العروضي المتميز لدى العرب منذ القرن الرابع الهجري على يد ابي العباس الباخرزي مما حدا ببعض المعاصرين الى اعتباره بحرا جديدا يضاف الى البحور الستة عشر، على حين عده آخرون من بحر الرجز،بينما رأى قسم ثالث انه من ملحقات بحر الوافر، فيما أرجعه الى الهزج وهكذا.

على حين عده بعض النقاد المحدثين واحدا من الإرهاصات الفنية و الفكرية لتجديد الشعر في العصر الحديث، بدءا من محاولات جماعة الديوان و أبولو، و انتهاء بمدرسة الشعر الحر المكتملة ذات المعالم الثابتة، ولا سيما من حيث التحرر من قيود القافية ووحدة الوزن وعدد التفعيلات في الشكل، و الميل الى الغموض الشفاف و الرمز المحبب و اللغة الموحية في المضمون.

لقد طالعنا عبر سياحتنا السريعة في رحاب الفكر الصوفي و الفلسفي الذي ميز بعض مضامين هذا النوع من الشعر صور فنية طريفة، كان لها وقعها في وجدان المتلقي ورؤيته للحياة، ولا سما ما يتصل بكشف خوالج النفس الإنسانية، التي أضحت تواجه ظواهر التباين الحاد في الرؤية المعاصرة لمنظومة القيم التي تناولها هذا النوع المميز.

و أخيرا فقد لمسنا مقدار تأثيره– بمزاياه الإيقاعية المتفردة الجميلة و موضوعاته الطريفة– في مجمل شعرنا العربي، مما يذهب بنا القول بعيدا الى ان من الجدير بنا ان نمنحه الفرصة في أن يحظى بالدعم عبر التعريف به: بحثا ونشرا وأعلاما، ليستعيد مجده الآفل في مدار (أدبنا المعاصر).

والله أرجو ان أكون قد وفقت في مسعاي المتواضع للتعريف الموجز به–بما يتحماه المقام– ومنه الهداية الى مواطن الصواب.. انه مجيب الدعاء.

قائمة بالمراجع الأساسية :

١. الادب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه: معروف الرصافي: مطبعة المعارف/ سنة١٩٦٩.
٢. أهدى سبيل الى علمي الخليل العروض و القافية: محمود مصطفى: ط ٧القاهرة/ سنة١٩٦٧.
٣. تاريخ اداب العرب: مصطفى صادق الرافعي: ج٣: مصر/١٩٤٠: اخراج (محمد سعيد العريان).
٤. ديوان الدوبيت في الشعر العربي(في عشرة قرون): د.كامل مصطفى الشيبي: دار الثقافة: بيروت/ سنة١٩٧٢.
٥. رباعيات ابو نؤاس: رامز حيدر: ط١ بيروت/ سنة١٩٦٥.
٦. العروض الواضح: د.ممدوح حقي: ط١٤: دار مكتبة الحياة / سنة١٩٧٠.
٧. فن التقطيع الشعري و القافية: د.صفاء خلوصي: ط٣: بيروت/ سنة١٩٦٦.
٨. في أدب العصور المتأخرة: د.ناظم رشيد: مطبعة جامعة الموصل: العراق: سنة,١٩٨٥
٩. معجم المصطلحات العربية في الفن والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس: لبنان/ سنة١٩٨٤.